بين التعاون والصراع... خيارات إيران في المشرق العربي

محمد سليمان الزواوي

ملخص: تحاول هذه الدراسة استشراف خيارات إيران بين التعاون والصراع مع القوى الإقليمية في المشرق العربي، بدءًا من اليمن جنوبًا وحتى سوريا والعراق شمالاً. وتركز على التحديات الداخلية الإيرانية: الاقتصادية والسياسية الاجتماعية، وكذلك التحولات في المشهد الإقليمي والدولي. وتخلص الدراسة إلى ثلاثة سيناريوهات محتملة فيما يتعلق بخيارات إيران: السيناريو الأول يناقش تراجع إيران عن طموحاتها الإقليمية بسبب الضغوط الداخلية، والسيناريو الثاني يتعلق بتبدل التحالفات الإقليمية، ومن ثم خسارة إيران لنفوذها في سوريا فقط وتراجعها إلى مواقعها في العراق ولبنان، أما السيناريو الثالث فيتوقع اندلاع حرب شاملة سُنية شيعية في الإقليم في حال إخفاق الوساطات لوقف نزيف الدماء.

* جامعة سكاريا، تركيا.

Between Cooperation and Conflict: Iran's Options in the Levant and Arab Peninsula

MUHAMMAD AL-ZAWAWY*

ABSTRACT: This study tries to foresee Iran's options in the Levant and Arab Peninsula between cooperation and conflict with the regional powers, as the latter started to sense the seriousness of the sectarian moves of Iran. The study focuses on Iran's internal, socio-economic and political challenges, as well as the shift in the regional landscape and the rise of a new Sunni Coalition to counter Iranian influence. Moreover it analyses the impact of the U.S.- Russian relations on the region. The study concludes with three possible scenarios regarding the future of the region and Iran.

* Sakarya University, Turkey.

رؤية تركية
2016 - (5/2)
25 - 9

تقف إيران اليوم في مفترق طرق فيما يتعلق بمحاولة تحقيق نفوذها الإقليمي، فالجمهورية الإسلامية قطعت منتصف الطريق نحو تنفيذ أهدافها بالتوغل غربًا في أعقاب الغزو الأمريكي للعراق، واستفادت من الفراغات الجديدة الناشئة عن تحطّم الدولة العراقية، واستثمرت علاقاتها مع نظام بشار الأسد من أجل الوصول بنفوذها إلى ساحل المتوسط بمعاونة ميليشيات حزب الله اللبنانية، كما عضدت نفوذها بتحالفها مع الدولة الروسية بوصفها ثقلًا موازنًا للضغط الأمريكي، وآلة حرب تحرق الأرض أمام القوات المدعومة إيرانيًّا بقيادة حزب الله وكتائب الحرس الثوري والميليشيات الموالية لها، واستفادت من التحالف مع موسكو في تثبيت دعائم نظام بشار الأسد، وقد حققت عدة مصالح تكتيكية، إلا أنها لم تجنِ حتى الآن أيّ ثمرات لتحركاتها في الإقليم، ولا تزال تراوح مكانها في "منتصف الطريق"، مخلّفة وراءها دماءً جارية وأشلاء بريئة وحربًا مذهبية وأرضًا محروقة، وتدميرًا للبنية الاجتماعية في مناطق طموحاتها في كل من العراق وسوريا ولبنان واليمن.

ومع استشعار الدول القائدة في الإقليم بالنتائج الكارثية للتحركات الإيرانية وتأثيرها في تغيير البنية السياسية والاجتماعية في المنطقة، بدأت تتشكل تحالفات "سُنية" بقيادة سعودية تركية

ومع استشعار الدول القائدة في الإقليم بالنتائج الكارثية للتحركات الإيرانية وتأثيرها في تغيير البنية السياسية والاجتماعية في المنطقة، بدأت تتشكل تحالفات "سُنية" بقيادة سعودية تركية، من أجل مواجهة النفوذ الإيراني على المستويات العسكرية والسياسية أيضًا؛ بتحجيمها من خلال المنظمات الإسلامية، وعلى رأسها منظمة التعاون الإسلامي، حيث استطاعت دول المنظمة بضغوط تركية سعودية استصدار البيان الختامي الذي أدان التحركات الإيرانية وميليشياتها في العالم الإسلامي، فيما تحركت السعودية بمناورة "رعد الشمال" للتهديد بقطع التدخلات الإيرانية، وكذلك هددت تركيا بالتدخل عسكريًّا في سوريا للدفاع عن أراضيها التي تتعرض لهجمات وقذائف من الداخل السوري.

وفي هذا الإطار تقلّصت الخيارات الإيرانية التي وصلت إلى منتصف الطريق بدون أن تحقّق إنجازات تُذكَر، وتقف اليوم في مفترق طرق: إمّا استكمال ما بدأته من نفوذ إقليمي بكل ما ينطوي عليه ذلك من تكلفة عسكرية وسياسية واقتصادية؛ أو التوقف في مكانها والاكتفاء بالمكتسبات التكتيكية التي حققتها، والسعي إلى قبول التهدئة والحلول السلمية، مع الاحتفاظ بأوراقها ومناوراتها العسكرية، ودعم الميليشيات المسلحة للحفاظ على الوضع القائم؛ أو الانتقال إلى مرحلة التعاون البنّاء مع بقية الدول، والتراجع عن الطموحات السياسية والمذهبية التي بدأتها منذ العقد المنصرم، ومن ثَمّ تعمل مع الدول القائدة في الإقليم من أجل حلّ مشكلات المنطقة، وهو ما يعني بالضرورة إرجاع المذهبية والطائفية إلى الخلفية، واستبدال التعاون البناء بها.

وفي هذه الورقة نحاول أن نرصد الخيارات الإيرانية في الإقليم، في ظل التحولات الداخلية التي تشهدها إيران، بالإضافة إلى التحولات الإقليمية، وعلى رأسها اتخاذ السعودية زمام المبادرة والتصعيد بالتحالف مع تركيا، بالإضافة إلى الوضع الدولي الذي شهد تدخل روسيا في المنطقة، وانسحاب الولايات المتحدة الجزئي، ومن هنا نحاول رسم السيناريوهات المتوقعة للتحركات الإيرانية في ظل خياراتها في المشرق العربي. وستحاول الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: **ما خيارات إيران في المشرق العربي؟** وستتفرع عنه الأسئلة الآتية: ما المتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية المؤثرة في السلوك الإيراني في المنطقة؟ وما سيناريوهات المستقبل المتوقعة للتحركات الإيرانية في المشرق العربي؟

وسيتم تقسيم الدراسة إلى أربعة محاور، هي: التغيرات الجديدة على الساحة الداخلية الإيرانية، وتحولات المشهد الإقليمي، و أثر العلاقات الأمريكية الروسية في الوضع في المشرق العربي، وأخيراً خيارات إيران في ظل السيناريوهات المتوقعة.

مقدمة

لابدّ قبل محاولة تقييم الخيارات الإيرانية في إقليم المشرق العربي- أن نسأل سؤالاً محوريًّا ودالًّا: هل النظام الإيراني عقلاني؟ أي أيتّخذ قراراته بناء على المصلحة أم بناء على الأيديولوجيا؟ فالنظم الأيديولوجية تتحرك بناء على معتقدات سابقة، وتتدخل القناعات الدينية والأيديولوجية بصورة كبيرة في عملية اتخاذ القرار، ولاسيّما في السياسة الخارجية، وتكون غير عقلانية، بل ربما تقدم على الانتحار أو التدمير المتبادل، إذا ما تطلب الأمر؛ لتحقيق تلك الأهداف الأيديولوجية أو الدينية. فهناك تقييمات تفيد أن النظام الإيراني نظام أيديولوجي، ومن ثَمّ فإنه لن يقبل إلا ما يحقق أهدافه الأيديولوجية، وعلى رأسها تصدير الثورة الإيرانية، واستدعاء الثارات التاريخية بين السُّنة والشيعة، بوصفها مهمّة مقدّسة مترسّخة في العقلية الشيعية التي تنطلق من الإحساس بالمظلومية، ومن ثم فإن عداءها لـ"أهل السُّنّة" عداء وجودي تاريخي، لا يقبل الحلول المتوسطة، ولا يقبل البراغماتية المصلحية. في حين تفيد تقييمات أخرى أن النظام الإيراني نظام عقلاني، بدليل أنه لم يستهدف إسرائيل بصورة مباشرة ولو مرة واحدة في تاريخه، بل تعاون مع الولايات المتحدة في صفقة لتوريد أسلحة في أثناء الحرب مع العراق بوساطة إسرائيلية عام 1985، فيما عُرف بفضيحة إيران كونترا[1]، كما أنّ حليفها الأكبر هو الدولة الروسية، وهي دولة لا تتفق معها في القيم أو الدين أو الأيديولوجية؛ وهذا يفيد أن النظام في المجمل لا يتحرك مدفوعًا بأيديولوجية أو عقيدة دينية، ولكنه في النهاية يحقّق مصالحه العليا ببراغماتية.

لكنّ هناك تفسيرًا ثالثًا، هو أن النظام الإيراني يجمع ما بين البراغماتية والأيديولوجية، ويستخدمهما بالتبادل لتحقيق كل من مصالحه وعقديته الدينية؛ فالمصالح تخدم الأيديولوجية،

والنظام له هدف أساسي لا يخجل من إعلانه صراحة، وهو السيطرة على منطقة المشرق العربي، وأن يبسط نفوذه على العالم الإسلامي في النهاية بمذهبيّته الشيعية، بداية من المناطق الهشّة الساقطة من حروب بوش في كل من العراق وأفغانستان، وصولًا إلى سوريا التي ساند فيها الإيرانيون نظام بشار الأسد، وتفاخروا بأنهم يسيطرون الآن على عدة عواصم عربية[2]. ومن هذا المنطلق فإن النظام الإيراني يتحالف مع روسيا، وعقد الاتفاقية النووية مع الغرب بقيادة الولايات المتحدة لإعادة دمجه في النظام العالمي؛ وهو ما حدا بالجنرال مارتن ديمبسي رئيس الأركان الأمريكي السابق أن يقول إن إيران هي "لاعب عقلاني"، وهي قناعاته التي خلُص إليها بناء على معطيات كثيرة، كان من أهمها التقارب الأخير بين الولايات المتحدة وإيران، وما وصفه ديمبسي بالمسار الأكثر عقلانية بالنسبة للولايات المتحدة؛ فيما تصف الاستخبارات الأمريكية النظام أنه غير عقلاني؛ بسبب طريقة صنع القرار والأدبيات الدينية التي يستخدمها في خطاباته، فيما أكدت تقديرات استخباراتية أخرى للولايات المتحدة أيضًا عام 2007 أن "القرارات الإيرانية يقودها منهج الربح والخسارة لا الهرولة نحو اكتساب السلاح النووي، بصرف النظر عن التكاليف العسكرية والاقتصادية والسياسية"[3]. إذن هناك خلاف داخل المجتمع الاستخباراتي الأمريكي؛ بل داخل وزارة الدفاع ذاتها على توصيف النظام وطريقة عملية اتخاذ القرار، ولاسيما القرارات الإستراتيجية الحاسمة، مثل حصولها على السلاح النووي.

ومن خلال هذه التوليفة التي تجمع بين العقلانية والأيديولوجية لدى النظام الإيراني، نستطيع أن نفهم تحركاته الحالية، التي تستخدم فيها تلك الازدواجية بمهارة شديدة، ليس طبقًا لمنظومة القيم الحاكمة للرؤية الإيرانية، ولكن تبعًا للخصم الذي تتعامل معه؛ فهي تتعامل بأيديولوجية شديدة مع الصراعات المذهبية في المنطقة، بينما تتعامل بعقلانية شديدة

مع القوى الكبرى، وعلى رأسها روسيا والغرب والولايات المتحدة، وتستخدم تلك العلاقة والازدواجية في تحقيق مصالحها التي ترمي في النهاية إلى تحقيق أيديولوجيتها، كما تستخدم الأيديولوجية والعاطفة المذهبية في الداخل الإيراني من أجل تسويغ مغامراتها الخارجية، التي تحرق فيها الموارد الاقتصادية المحدودة للدولة الإيرانية في محاولة تحقيق أهدافها الأيديولوجية، التي تغطيها بغلاف مذهبي عندما يتعلق الأمر بخوض معارك خارجية في مناطق بعيدة عن حدودها القريبة بحجة الدفاع عن الأضرحة المقدسة في سوريا، وباستخدامها التنظيمات المتطرفة في المنطقة سحابة دخان تخفي وراءها أطماعها التوسعية للسيطرة على إقليم المشرق العربي.

جاء انتخاب رجل الدين آية الله أحمد جنتي، رئيسًا لمجلس خبراء القيادة، الذي يتمتع بنفوذ قوي في قيادة العملية السياسية في إيران، تعزيزًا لنهج المحافظين فيها

وتوصيف النظام الإيراني يُعَدّ مسألة مهمّة للغاية إذا حاولنا أن نتنبأ بسلوكه تجاه قضايا بعينها، ومن ثمّ تستطيع الدول المعنية التعامل مع الجمهورية الإسلامية تبعًا لذلك التوصيف، وكذلك أولويات النظام فيما يتعلق بأهم قضايا المنطقة، انطلاقًا من الداخل الإيراني، وسيطرة النظام الحالي على مفاصل الحكم في البلاد، عن طريق المرشد الأعلى علي خامنئي، وعن طريق الحرس الثوري الذي يسيطر كذلك على الاقتصاد وعلى الجيش والاستخبارات.

ويُعَدّ هذا المدخل مهمًّا لفهم ديناميات السياسة الخارجية الإيرانية، وكذلك عملية صنع القرار داخل مؤسساتها السيادية، ومن ثم نحاول أن نفهم خيارات إيران في المشرق العربي.

التحولات في الساحة الداخلية الإيرانية

بالنظر إلى بنية النظام الإيراني، وسيطرة المرشد على عملية صنع القرار، وكذلك سيطرة الحرس الثوري على الجهات السيادية، ومفاصل الاقتصاد، وطريقة النظام في منع مرشحين بأعيانهم في خوض الانتخابات على المستويات كافة، وكذلك طريقته في قمع التظاهرات والثورات ضده- نفهم أن النظام سلطوي لا يهمّه مصالح شعبه، ولا يطبق ديموقراطية حقيقية داخل بلاده، حتى بالنظر إلى النجاحات التي حققها الإصلاحيون مؤخرًا في الانتخابات البرلمانية، التي يراها بعض المتابعين عملية توزيع أدوار ممنهجة من أجل وسم الجمهورية الإسلامية بأنها ديموقراطية، ومن ثم تروج لمرحلة إعادة إدماجها في المجتمع الدولي، التي سوف تستفيد منها طهران كثيرًا بعد سنوات عجاف بسبب العقوبات الغربية؛ فالنظام السياسي الإيراني لا يسمح بترشح سوى من يرضى عنه من المرشحين عبر لجنة فرز رئيسة تستبعد كل من تشك في عدم ولائه للنظام، أو يشكل خطرًا عليه، ومن ثم فإن فوز روحاني بالرئاسة والإصلاحيين في البرلمان لن يقدّم كثيرًا فيما يتعلق بصناعة القرار داخل الدولة الإيرانية، إلا

أن دورهم داخل مجلس الخبراء ربما يكون هو الأهم؛ باعتبار أنه يختار خليفة المرشد؛ حيث إن التيار الإصلاحي قدّم في العاصمة طهران قائمة انتخابية عرفت بـ(30+16)، أي 30 مرشحًا للبرلمان و16 مرشـحًا لمجلس خبراء القيادة، ونجحت هذه القائمة بنسبة مئة في المئة"[4]. ويُعَدّ مجلس خبراء القيادة الإيرانية الهيئة الأساسية في النظام الإيراني الذي عهد إليه الدستور مهمّة تعيين قائد الثورة الإسلامية في إيران وعزله، ويتألف هذا المجلس من 86 عضوًا يُنتَخبون عن طريق اقتراع شعبي مباشر لدورة واحدة مدتها ثماني سنوات، بحيث يُمثّل كلّ محافظة عضو واحد داخل هذا المجلس طالما كان عدد سكانها نصف مليون نسمة، وكلما زادت الكثافة عن ذلك زاد معها تمثيلها بعدد الأعضاء[5].

يُعَدّ مجلس خبراء القيادة الإيرانية الهيئة الأساسية في النظام الإيراني الذي عهد إليه الدستور مهمّة تعيين قائد الثورة الإسلامية في إيران وعزله، ويتألف هذا المجلس من 86 عضوًا يُنتَخبون عن طريق اقتراع شعبي مباشر لدورة واحدة مدتها ثماني سنوات

وجاء انتخاب رجل الدين آية الله أحمد جنتي، رئيسًا لمجلس خبراء القيادة، الذي يتمتع بنفوذ قوي في قيادة العملية السياسية في إيران، تعزيزًا لنهج المحافظين فيها، على الرغم من تراجع ممثليهم في الانتخابات البرلمانية الأخيرة؛ حيث يعدّ آية الله جنتي أحد فقهاء الحوزة العلمية الدينية في قم الذين يتبنون مبدأ ولاية الفقيه، وانخرطوا في العمل السياسي إلى جانب مسؤولياتهم الدينية، كما كان أحد القلائل من رموز التيار المتشدد في إيران الذين أعيد انتخابهم في الانتخابات البرلمانية في فبراير 2016. ويتولى جنتي أيضًا أمانة مجلس صيانة الدستور في إيران، الذي يتولى عملية الإشراف على اختيار المرشحين لمجلس الخبراء، فضلًا عن إقرار المتقدمين للترشيح في الانتخابات الرئاسية والبرلمانية، ويعدّ من أقدم الأعضاء الفقهاء في مجلس صيانة الدستور، الذي يتألف من 12 عضوًا، إذ عينه آية الله الخميني، زعيم الثورة الإسلامية الراحل، عضوًا فيه في عام 1980[6].

كما فرضت التداعيات الدولية تأثيرات مباشرة على النظام الإيراني ليتعامل مع مظاهر الحريات والحقوق العامة التي سادت في المجتمع الدولي، وبخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة التي دفعت بالسلطة السياسية إلى إجراء تحولات سياسية مهمّة، وبناء نظام أساسي تختلط فيه القيم الدينية والديمقراطية، وبموجبه يُتوصَّل إلى السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية من خلال الانتخابات، وهذا جسَّد مفهوم مبدأ تداول السلطة، وفتح قنوات الحريات الإعلامية، والتعدد في طرح الآراء، ومن ثَمّ دفعت إلى تشكيل منابر وجماعات سياسية تطرح برامج وتوجهات عقائدية وسياسية متباينة[7].

لذلك فإن فوز الإصلاحيين في الانتخابات البرلمانية الأخيرة ربما ينقل صورة مغلوطة تفيد بوجود خطّين متباينين ضمن السياسة الإيرانية: الخطّ الأول هو الخط المتشدد الذي يقوده المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي، والحرس الثوري، والخطّ الثاني هو الخط البراغماتي

العملي الذي يمثله الرئيس روحاني ووزير الخارجية محمد جواد ظريف، ولكن بعيدًا عن رواية التيارين المتنافسين في طهران، يعمل الخطان على أرض الواقع بانسجام وتناغم تامّين؛ فالسلطة في إيران لا تزال مترسخة في يد المرشد الأعلى، في حين يبدو معسكر روحاني مفيدًا لخامنئي بغية تقديم صورة مقبولة ومستساغة عن إيران تجاه الغرب. ومن هذا المنطلق، لا يمكن تمرير أي قرار حول السياسة الخارجية من دون موافقة خامنئي النهائية، والقلق الذي يعرب عنه أحيانًا بعض المراقبين الخارجيين حول التوترات المحتملة الناشبة بشأن قضايا محددة، كالاتفاق النووي، بين مخيم روحاني والحرس الثوري، هي نتاج محاولات النظام الإيراني تشتيت الانتباه بعيدًا عن الميكانيكا الداخلية التي تحكم صُنع القرار في طهران. والذي يؤكّد انعدام التنافس بين خطَّي السياسة الإيرانية هو أن حسن روحاني نفسه لم يكن ليصبح رئيسًا لولا موافقة خامنئي على ذلك في المقام الأول، وهذا الأمر لا يتعلق بنتائج الانتخابات بعد إدلاء الناخبين بأصواتهم، ولكن لكون مجلس صيانة الدستور، الذي يُشرف على الانتخابات الرئاسية، يتمتع بسلطة استبعاد المرشحين غير المستحبين من الترشح في المقام الأول؛ فلو لم يكن روحاني مفيدًا، من وجهة نظر المحافظين الإيرانيين، لاستُبعِد ترشيحه أساسًا[8].

ومن أهم التحولات في الساحة الداخلية الإيرانية الشعور المتزايد لدى المواطن الإيراني بأهمية إصلاح الاقتصاد، والذي يقبع على رأس أولوياته، كما أن الإيمان بالثورة الإيرانية ومبادئها، والرغبة في تصديرها بدأ يخبو بين الإيرانيين، كما حدثت تحولات في بنية المجتمع الإيراني إثر نزوح الكثيرين من القرى إلى المدن، وزاد الطلب على السلع الاستهلاكية والتكنولوجيا الغربية، وزاد عدد الملتحقين من الشباب الإيراني بالجامعات بعد أن كانت النسبة الثلث فقط في السنوات الماضية، وفقدت السياسات الراديكالية بريقها مع تزايد المتعلمين، وارتفع رصيد الوسطيين البراغماتيين بعد رئاسة أحمدي نجاد الكارثية، وإخفاق الانتفاضة الخضراء –التي سعت لإسقاطه في 2009– وآثار الربيع العربي، كما تراجع المجتمع الديني التقليدي الذي طالما حلم به الملالي، وبمرور الوقت أصبحت أعداد المصلين بالمساجد تتضاءل، ولم يُعَدْ الأذان يُسمَع باستمرار، مع شكوى الكثيرين من الضوضاء. وفي قم، العاصمة الدينية تُنافِس مراكزُ التسوّق العملاقة مقرّاتِ الحوزات العلمية، وبدا أن هناك دولة إسلامية يتراجع الدين فيها[9].

كما أن الاتفاق النووي الإيراني مع الغرب جعل البلاد تستعدّ لعودة الانفتاح على العالم، واستقبال الاستثمارات الغربية مرة ثانية في البلاد، وكذلك رفع الحظر عن تصدير النفط، وإعادة دمج المصارف الإيرانية في الأنظمة المالية والبنكية العالمية، وكان الإيرانيون في السابق يتحايلون على ذلك الحظر عن طريق ميناء دبي الإماراتي، بالتجارة مع معظم دول العالم عبر ذلك الميناء، وعبر التجار الإيرانيين الذين يقيمون في دبي، وكذلك عن طريق تركيا التي كان لها موقف مبدئيّ من البرنامج النووي الإيراني طالما أنه لأغراض سلمية، ودافعت عن حقّها

في معرفة التقنية النووية. المهم أن المجتمع الإيراني بعد سنوات عجاف بات مستعدًّا الآن لقبول مزيد من الاندماج مع العولمة، وإن كانت الانتخابات البرلمانية الأخيرة، ومن قبلها الانتخابات الرئاسية تشير إلى شيء، فإنها تشير إلى سأم المجتمع الإيراني من حكم المتشدّدين، وأن نصف إصلاحيين -بتحالفهم مع المتشددين تحت عباءة المرشد- سيكون أفضل كثيرًا من حكم مثل حكم أحمدي نجاد، الذي عزل البلاد عن العالم الخارجي.

هناك عدة متغيرات أساسية في المشهد الداخلي الإيراني، على رأسها عدم قبول الشعب بمغامرة النظام في سوريا، في ظل ارتفاع قتلى إيران الذي أدّى إلى استياء في البرلمان

وهذه التوليفة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الداخل الإيراني، ستمثل ضغطًا على صانع القرار فيما يتعلق بمغامرات إيران الخارجية، وإنفاقها المتزايد على حروبها المذهبية، بينما يتّجه الشعب إلى مزيد من التركيز على قضاياه، الداخلية وإصلاح الاقتصاد والتعايش مع العالم الخارجي بدلًا من الاصطدام لتحقيق طموحات طائفية لحفنة ضيقة مهيمنة على صناعة القرار.

تحولات المشهد الإقليمي

تتعرض إيران حاليًّا إلى هزائم كبيرة على الساحة السورية، كان منها الإعلان عن أسر ستة جنود إيرانيين في خان طومان، وعزم البرلمان إجراء تحقيق ميداني في القضية[10]، في ظل استياء بين الشعب الإيراني من الأموال التي تدفع في هذه الحرب، وأن الشارع الإيراني لم يكن مرحبًا منذ البداية بالتدخل في سوريا، حيث اندلعت تظاهرات غاضبة في إيران ضد التدخل في سوريا من موظفين لم يقبضوا رواتبهم منذ أشهر[11]، إلا أن النظام أرسل القوات بذرائع دينية، فخامنئي يعتقد أن الخسارة في سوريا قد تسهم في قطع الصلة مع حزب الله، الذي يعدّه بمثابة اليد المقاتلة له داخل البلدان العربية، وأن المرشد الأعلى الآن يواجه أزمة كبيرة في اختيار خليفة له بعد أن رفض ترشيح ابنه، في حين يرى علي أكبر هاشمي رفسنجاني، أحد أبرز رموز الثورة في إيران، ضرورة أن تعود ولاية الفقيه بدون سلطة مطلقة كما كانت في السابق في بداية الثورة، وهو ما ينذر بتغير كبير على خريطة السياسة الإيرانية في الداخل والخارج؛ حيث يرى رفسنجاني أن من مصلحة إيران أن يكون لها علاقات مع المعارضة السورية المعتدلة، بينما سيؤدي ارتفاع عدد القتلى من العسكريين الإيرانيين في الفترة القادمة إلى تأجيج حالة الاحتقان المكتوم بين الشعب الإيراني، وهذا ينذر باتساع نطاق التظاهرات التي تندد بالتدخل في سوريا في طهران وغيرها من المدن[12].

أدت التحركات الإيرانية المدفوعة بالأيديولوجيا الطائفية الشيعية إلى دفع المملكة العربية السعودية إلى اتخاذ سياسات مبادرة، باستخدامها هي الأخرى قوتها الصلبة في الإقليم

فهناك عدة متغيرات أساسية في المشهد الداخلي الإيراني، على رأسها عدم قبول الشعب بمغامرة النظام في سوريا، في ظل ارتفاع قتلى إيران الذي أدّى إلى استياء في البرلمان، وكذلك أزمة خلافة خامنئي، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية السيئة التي تمر بها البلاد في ظل إنفاق المليارات على تلك المغامرات الخارجية، فيما تشير تقارير إلى أن عدد قتلى إيران في سوريا بلغ 700 قتيل حتى مايو 2016 من جنود وعناصر المليشيات الإيرانية، وهذا يكشف بوضوح الثمن الذي تدفعه إيران، جراء تدخلها في سوريا دفاعًا عن نظام بشار الأسد، ومن أجل استمراره في السلطة، وقد فضح الإعلام الرسمي الحكومي سقوط عدد كبير من مقاتلي الحرس الثوري، حيث كشف عن مقتل 13 عنصرًا من عناصره في حلب في الأول من مايو 2016[13].

وعلى المستوى الإقليمي فإن إيران لم تخسر قتلاها فقط، ولكن سمعتها العسكرية بعد ذلك العدد الكبير من القتلى أمام مقاتلين غير نظاميين وغير مدربين، وإخفاقها في دعم نظام بشار الأسد، حتى استعانت بآلة الحرب الروسية، كما أن قوتها الناعمة تدمرت كذلك بعدما كانت تهدف إلى تصدير أدبيات الثورة التي من أهم ركائزها انتصار الدم على السيف، ونصرة المظلوم، والوقوف في وجه المستكبرين، إلا أن ما فعلته إيران في سوريا دمر أدبياتها وقوتها الناعمة، بوقوفها ودعمها وتثبيتها لأركان نظام حاكم يعدّ أكثر الحكام قتلًا لشعبه في التاريخ العربي الحديث، كما احترقت معها شعبية ميليشيا حزب الله في ذلك الطريق أيضًا، بعدما أُدخل في أتون الحرب السورية للحفاظ على مصالح إيران، وقاتلَ أبناء الشعب السوري، وأغرق ميليشياته في حرب طائفية، بعدما كان قد بنى سمعته في المنطقة العربية على مقاتلته إسرائيل، وأنه المدافع عن القضايا العربية والإسلامية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، وأنه يعدّ امتدادًا لما كان يسمى بـ"محور الممانعة"، أما الآن فقد أصبحت ميليشيا حزب الله تقاتل في حرب طائفية إيرانية.

كما أدت التحركات الإيرانية المدفوعة بالأيديولوجيا الطائفية الشيعية إلى دفع المملكة العربية السعودية إلى اتخاذ سياسات مبادرة، باستخدامها هي الأخرى قوتها الصلبة في الإقليم، بدءًا من الحرب في اليمن، وصعودًا حتى مناطق القتال في سوريا والعراق، وأقامت مناورات رعد الشمال، وعقدت تحالفًا مع الدولة التركية في إطار تحالف سُنيّ موسع في الإقليم، جلبت إليه أيضًا كلًّا من باكستان ومصر، من أجل وقف التدخلات الإيرانية التي تهدف إلى تفتيت الإقليم، ودعم المليشيات الطائفية التي تحقق مصالحها المذهبية، وهذا أدى إلى تعضيد التحالف الخليجي التركي، كما أن أنقرة دشنت قاعدتها العسكرية الأولى في الخليج العربي[14]، وهي إشارة واضحة لتصاعد التحالف بين الجانبين إلى تحالف عسكري إستراتيجي يربط بين

العـدوان عـلى الخليج وبين العدوان عـلى تركيا، الممثلة بقاعدتها في قطـر. وأدى ذلك أيضًا إلى تحجيم النفوذ الناعم لإيران باسـتهدافها في قمة التعاون الإسـلامي التي عقدت في إسـطنبول في أبريـل 2016، وجاء بيانهـا الختامي يدين إيران وتحركاتها في المنطقـة العربية، وكذلك أدان ميليشياتها وأذرعها العسكرية في المشرق العربي[15].

لذلـك فـإن إيـران الآن تواجـه تحالفًا "سُـنيًّا" يتشـكل بقيـادة خليجية-تركيـة، يربط بين مصالـح الطرفـين أمـام المطامـع الإيرانيـة، وهو مـا يمثل ضربة قاصمـة للخطـط الإيرانية في الإقليـم، بالإضافة إلى تحجيم ميليشـياتها مثل حزب الله، ووسـمها بأنها جماعـة إرهابية[16]، وما استلزم عن ذلك من ترحيل أو اعتقـال كل من يثبت أن له روابط بتلك الميليشـيا داخـل دول الخليج، وذلك لدرأ خطر وجود عملاء لها ينفـذون المصالح الإيرانية في دول التماس، مثل الكويت والبحرين، كما فسحت دول مجلس التعـاون الخليجـي المجال أمـام المواطنين الأتـراك ودول عربيـة بعينهـا، للعمـل في مؤسسـاتها، بعـد الحديث عن ترحيـل منتمـين أو متعاطفين مـع "حـزب الله" اللبناني، وأعلنت وزارات العمل في هذه الدول عن وظائف جديدة لهؤلاء، ولا سـيما قطر والسـعودية والإمارات وعُمان والبحرين، كما ألغت السـعودية عقودًا لتسـليح الجيش اللبناني للضغط على صنّاع القرار في البلاد بعدم التسامح مع السياسات الطائفية لحزب الله[17].

لـم تجـد إيـران -وفقًـا للظـروف الداخليـة والإقليميـة التـي وضعت نفسـها فيها- بـدًّا من الهـروب إلى الأمام والاستعانة بالحليف الروسي لنجدتها في سـوريا، ولتثبيت أقدام حليفها النظام السوري

أثر العلاقات الأمريكية الروسية في الوضع في الإقليم

لم تجـد إيـران -وفقًـا للظـروف الداخليـة والإقليميـة التي وضعت نفسـها فيهـا- بدًّا من الهـروب إلى الأمـام والاسـتعانة بالحليف الروسي لنجدتها في سـوريا، ولتثبيت أقـدام حليفها النظام السوري، بالرغم من الثمن الباهظ الذي تدفعه إيران مقابل ذلك، فإيران تدفع التكلفة الروسية في تلك الحرب التي تكلّف ملايين الدولارات؛ حيث أعلنت خبيرة أمريكية أن تكلفة التدخل الروسي يبلغ نحو مليوني دولار يوميًّا، وقالت ريفا بهالا نائبة رئيس مؤسسة ستراتفورد الأمريكية المتخصصة في الاسـتخبارات الجيوسياسـية: إن موسـكو لن تكون قادرة على تحمل النفقـات لأكثر من أربعة أشـهر في سـوريا، حيث تبلغ تكلفة الغـارات الجوية والطلعات غير القتالية نحو مليوني دولار يوميًّا على الأقل، و"إن إطلاق صواريخ كروز من السـفن الروسـية في بحـر قزوين إلى أهداف في سـوريا كان عرضًا مكلفًا، إذ تبلـغ تكلفة إطلاق صاروخ واحد 30 مليون دولار على الأقل، ومن جانبه صرح الخبير في مركز التحليل الإسـتراتيجي فاسـيلي كاشـين أن تلك المبالغ تشـمل السـلاح المقدّم لقوات النظام السـوري، وهو مدفوع الثمن من إيران وسـوريا"[18]. هذا بالإضافة إلى الثمن الذي دفعته سـوريا من سيادتها؛ حيث إنها منحت روسـيا قاعدة عسـكرية جديدة في حميميم، بالإضافة إلى قاعدة طرطـوس، وعقدت اتفاقًا مع

موسكو على بقاء القوات هناك، وأنه في حالة نقض دمشق لذلك الاتفاق سيتعيّن عليها إخبار موسكو قبل ذلك بعام كامل[19].

أما الولايات المتحدة فشغلها الشاغل في الإقليم هو تنظيم الدولة الذي خرج عن السيطرة، وتنامى تهديده، فالولايات المتحدة دمرت العراق بعد غزوها لها في 2003، وهو الذي فتح تلك الحرب السُّنية الشيعية على مصراعيها، وسمح بدخول النفوذ الإيراني وتغلغله في داخل مؤسسات الدولة العراقية، وعلى رأسها الجيش العراقي الذي حلّه الحاكم الأمريكي للعراق آنذاك بول بريمر، وهو ما فتح الباب واسعًا أمام تحول كوادر جيش صدام إلى المقاومة المسلحة، ومع تشكّل الجيش الجديد وغالبيته من الشيعة تحوّلت الحرب في العراق إلى سنية شيعية، ما لبثت أن التحمت عناصر جيش صدام وقادة حزب البعث بقيادة عزة الدوري بالعناصر الإسلامية الأخرى المقاومة للوجود الأمريكي في العراق، وهذا شكّل نواة تنظيم داعش الذي استغل الفراغات الناشئة عن الثورة السورية ليوسع من نطاق عملياته، ومن ثم أصبح يمثل تهديدًا للولايات المتحدة، التي ربما كانت تهدف فقط إلى حرب سنية شيعية تأكل الإقليم ذاتيًّا، بدون أن يخرج منتصر قويّ بحجم تنظيم الدولة، الذي استطاع أن ينهب أسلحة الجيش العراقي الثقيلة ومدرعاته، ليخرج عن السيطرة، ويشكّل تهديدًا لكل دول الجوار، ومن ثم فإن الولايات المتحدة ليست مشغولة فيما يبدو بالإطاحة ببشار الأسد، أو بمقاومة الحرب السنية الشيعية التي أشعلتها، بقدر انشغالها بمحاولتها احتواء ذلك المارد الذي خرج من القمقم، وامتد تأثيره إلى القارة الأوروبية بتفجيرات بروكسل وباريس وغيرها[20].

ومن المتوقع أن تستمر الولايات المتحدة في توجهها المنسحب من المنطقة بعد القضاء على خطورة التنظيم، وهذا ما بدأت تظهر ملامحه مع وقوف الغرب مع تركيا ودول الخليج وراء ذلك الهدف، وقطع طرق إمدادات التنظيم عبر تركيا، ومحاصرته من الاتجاهات كافة بالمشاركة مع النظام السوري وحليفه الروسي، ومن ورائهما إيران، وفور خفوت قوة ذلك التنظيم فمن المتوقع أن تترك الولايات المتحدة الساحة تدمر بعضها بعضًا من جديد، بالتوازي مع كون ذلك الصراع سيظلّ يمثل ثقبًا أسود للموارد وللجنود الإيرانيين، بدون أن تستطيع إيران أن تحقّق فوزًا عسكريًّا ولا حتى معنويًّا، فهي في النهاية تقاتل شعبًا بأكمله ثار على نظام بشار، والآن تدعمه دول إقليمية عديدة، وفور أن تستنزف الأموال الإيرانية فإن روسيا ستنسحب من الصراع، مثلما فعلت من طرف واحد بالبدء في سحب معداتها العسكرية من قواعدها في سوريا في فبراير الماضي، من أجل الضغط على مختلف أطراف الصراع للتوصل إلى اتفاق سياسي، حيث إن روسيا تستخدم الورقة الإيرانية في النهاية لإخافة الغرب، لكن مصالح موسكو الإستراتيجية هي تحجيم النفوذ الغربي، والضغط عليه من أجل عدم وضع أسلحته الدفاعية بالقرب من مناطق نفوذه في شرق أوروبا، وعادة ما كان يستخدم الدب الروسي علاقته مع إيران ببراعة في هذا الملف، فعندما يضغط الغرب على موسكو تبدأ الأخيرة في

الإعلان عن تصديرها لأسلحة متطورة إلى طهران، وعلى رأسها صاروخ الدفاع الجوي المرعب للغرب إس 300، فطهران مجرد بطاقة تستخدمها موسكو على طاولة المفاوضات مع الغرب، ولا يمكن أن تتحكم إيران بطبيعة الحال في القرار الروسي، الذي يعاني اقتصاديًّا هو الآخر.

خيارات إيران في ظل السيناريوهات المتوقعة

من هذا العرض المجمل للوضع في كل من الداخل الإيراني والوضع الإقليمي، وكذلك العلاقات الأمريكية الروسية- يمكن أن نتبين أن خيارات إيران تتراوح ما بين التعاون والصراع، أو الاستمرار في حالة التدافع مع القوى الإقليمية في حالة متشابكة من التعاون والصراع، انتظارًا لحدوث متغيرات تغير قواعد اللعبة، على غرار التدخل الروسي لصالح بشار الأسد في بؤرة الصراع، واستدعاء موسكو إلى التحالف الإيراني مع النظام السوري.

وفي الوقت الذي تحاول فيه إيران دفع مصالحها الإقليمية، فإنها تتعاون مع تركيا في ملفات الطاقة، كما أنها تحاول أن تحافظ على العلاقات مع السعودية من دون مرحلة الصدام المباشر، بالرغم من تصاعد التوترات ما بين الجانبين حول قضايا الحجاج الإيرانيين، وطلب السعودية عدم تسييس الحج، ورفض إيران في المقابل التوقيع على محضر ترتيبات الحجاج الإيرانيين بحجة تعنت السعودية[21]، إلا أن العلاقات لم تصل بعد إلى مرحلة العداء المباشر، بالرغم من تصاعد وتيرة المواجهة غير المباشرة في حروب بالوكالة: سياسية وعسكرية في اليمن والعراق وسوريا ولبنان ومختلف مناطق التماس السُّنية الشيعية.

لذلك فإننا نستطيع أن نجمل خيارات إيران في المشرق العربي، بناء على متغيرات أساسية في المحددات الاقتصادية والسياسية والمذهبية، لعلاقة إيران بين مختلف دول الإقليم، ويمكن إجمالها كالآتي:

البعد الاقتصادي سيكون حاكمًا في القرار السياسي الإيراني في الأشهر المقبلة فيما يتعلق بنفوذها في الإقليم واستمرار دعم بشار الاسد، الذي يرى معارضوه المحليون والإقليميون أن لا مستقبل له في سوريا، وأنه مهما طال أمد الحرب فإنه لن يكون مقبولًا ولن يكون جزءًا من أي حل

المحدد الاقتصادي: ففي ظل انخفاض أسعار النفط، ومحاولة روحاني تنويع مصادر الدخل، في ظل الإنفاق المتزايد على الحرب السورية، التي تنفق فيها إيران ما يقرب من 6 مليار دولار سنويًّا[22]، فإن الدولة الإيرانية ستدخل في حالة من تعثر الاقتصاد، ولاسيما أن قطاعات كاملة -بعد سنوات من العقوبات الغربية- بحاجة إلى ضخ أموال وفيرة فيها لتقف على قدميها مرة ثانية، وعلى رأسها صناعة النفط ذاتها التي تحتاج إلى تحسين بنيتها التحتية، والإنفاق على عدد من مصافي وتكرير النفط لسد العجز في هذا القطاع المهمّ، وكذلك فإن احتياطات النفط

الصخري في الولايات المتحدة وكندا، ودخول دول جديدة في المنافسة على تصدير الغاز إلى أوروبا ولاسيما في حقول شرق المتوسط- ستسبب ضغطًا كبيرًا على الاقتصاد الإيراني الذي يعتمد بصورة أساسية على النفط والغاز، بالإضافة إلى أن الحليف الأكبر لطهران وهو الاتحاد الروسي، يعاني اقتصاديًّا هو الآخر؛ حيث إن صندوق النقد الدولي يتوقع انكماش الاقتصاد الروسي بنسبة 3.8 في المئة العام الجاري، بسبب تدني أسعار النفط، والعقوبات الغربية، على خلفية التدخلات في أوكرانيا، وضم شبه جزيرة القرم[23].

كما أن ذلك المتغير ينطبق على السعودية أيضًا التي تعتمد بصورة شبه أساسية على النفط والغاز في مصادر الدخل، وخصصت رؤية المملكة في 2030 مصادر أخرى غير النفط مثل الصناديق السيادية، وذلك من أجل الهروب من شبح الركود الاقتصادي الذي بدأت ملامحه تظهر في الأفق على مختلف الدول التي يعتمد اقتصادها على النفط، لذلك فإن البعد الاقتصادي ربما يمثّل عامل تهدئة للأوضاع الإقليمية باعتبار أن كلتا الدولتين: إيران والسعودية- لا تملكان الاستمرار في الإنفاق المتزايد على الحروب المذهبية في المنطقة، ومن ثم فإن التعثر الاقتصادي سيمثل ضغطًا داخليًّا على الحكومات من أجل وقف الإنفاق على التسليح، وعلى الحروب الخارجية، سواء على الرياض أم على طهران، ومن ثم تحدث تهدئة إجبارية لوتيرة الصراعات في المنطقة، مما يمهّد الطريق لفرص التعاون في مختلف القضايا محل النزاع.

لذا فإن البعد الاقتصادي سيكون حاكمًا في القرار السياسي الإيراني في الأشهر المقبلة فيما يتعلق بنفوذها في الإقليم واستمرار دعم بشار الاسد، الذي يرى معارضوه المحليون والإقليميون أن لا مستقبل له في سوريا، وأنه مهما طال أمد الحرب فإنه لن يكون مقبولًا ولن يكون جزءًا من أي حل، وتتفق في ذلك مختلف القوى الإقليمية، وعلى رأسها دول الخليج وتركيا، وهما جارا سوريا من الشمال والجنوب، ويدعمان الكثير من الفصائل المسلحة من المعارضة السورية على الأرض، ومع ارتفاع الخسائر الإيرانية المالية والبشرية، فإن الداخل الإيراني لن يقبل هذا الوضع المزري الذي يؤثر بصورة مباشرة في حياة الناس اليومية، وفي الاقتصاد المحلي- في تلك المغامرة الخارجية المدفوعة بأحلام الدائرة الأيديولوجية الضيقة لخامنئي، وهو ما ينذر بإعادة اندلاع تظاهرات واسعة النطاق، على غرار تظاهرات الحركة الخضراء والقوى الإصلاحية داخل البلاد، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى انهيار النظام الذي فقد بريقه بالفعل بوصفه حامل لواء الثورة الإسلامية، وفقد مصداقية أدبياته الثورية والشيعية.

تحول التحالفات الإقليمية: هدف روسيا من وجودها في سوريا هو المحافظة على قواعدها العسكرية، ولاسيما قاعدة طرطوس البحرية، والترويج لأسلحتها المتقدمة للحفاظ على حصتها في سوق السلاح العالمية، وكذلك استخدام الورقة السورية بطاقة لإعادة التأكيد أهميتها السياسية على المسرح الدولي. لذلك فإن روسيا تعدّ حجر الزاوية في إستراتيجية إيران الحالية للهيمنة على المنطقة، باستخدام طهران موسكو هراوةً لا تملكها ضد معارضي بشار،

ومن أجل المحافظة على النظام السوري الحليف، ولكن روسيا تستطيع في أي وقت مقايضة نظام الأسد بصفقة مع الغرب تتعلق بمنظومة الدرع الصاروخي الغربي الذي يهددها، وكذلك قبول الغرب ضم روسيا لشبه جزيرة القرم، ومن ثم فإن روسيا تعلم أن إيران ستظل إلى وقت غير قصير تابعة لموسكو فيما يتعلق بتصدير السلاح، كما أنها تستطيع أن تحافظ على قواعدها في سوريا في ظل أي اتفاق مع كل من القوى الغربية والقوى الإقليمية كذلك، وعلى رأسها الخليج وتركيا، ومن ثم فإن تخليها عن نظام بشار الأسد واستبداله أي نظام آخر به يحافظ على تلك المصالح، بل ووقف الحرب ومن ثم البدء في إعادة بناء سوريا بمشاركة الشركات الروسية كما كان الحال في إعادة إعمار العراق، وضمان صفقات بيع السلاح للجيش السوري الجديد، ففي تلك الحالة فإن موسكو ستتخلى عن بشار الأسد، ومن ثم ستعمل على وقف الحرب السورية التي تستنزف القدرات الروسية وجيشها، وقد بات ذلك واضحًا عندما حاول بشار الإيحاء بأن موسكو لن تستطيع عقد علاقات مع النظام السوري بدون حضوره، وهنا وجّه له خبير روسي مقرب من موسكو إهانات، بأن الذيل يريد أن يحرّك الكلب لا العكس؛ قائلًا: "تصرُّف الأسد هو مثال واضح على كيفية محاولة الذيل التحكم بالكلب.. بشار الأسد يحاول الإيحاء لروسيا بأنه لن يكون هناك وفاق بينها وبين دمشق بصرف النظر عمن سيخلفه"[24]، في إشارة إلى أن بشار مجرد ورقة مقايضة يمكن الاستغناء عنها في أي وقت، لذلك فالتخلي عن بشار الأسد ليس في يد إيران، ولكن في يد صناع القرار في موسكو، ومن ثم فإن إيران ذاتها لن تستطيع فعل أي شيء في ذلك السيناريو، بل ستنسحب إلى خطوطها داخل الدولة العراقية.

اشتعال الأوضاع بين السنة والشيعة إلى حرب طائفية واسعة: إن المحدد الحاكم لهذا السيناريو هو إخفاق مفاوضات جنيف، وتصاعد الحرب الطائفية في الإقليم، وبعد القضاء على خطورة تنظيم الدولة ستنسحب الولايات المتحدة من الإقليم مرة ثانية، ويصاحب ذلك انسحاب روسي، باعتبار أن موسكو لا تتحمل استنزاف قواتها والبقاء في مثل تلك الأوضاع بدون سقف زمني، وكذلك بدون القدرة على حسم الأوضاع على الأرض بصورة نهائية لصالح بشار. ومن ثم فإن انسحاب القُوى الكبرى من الإقليم ربما سيؤدي إلى اشتعال حرب بين السنة والشيعة، وبدلًا من أن تكون الحرب بالوكالة بين الطرفين فإن اشتعال الأوضاع يمكن أن يؤدي إلى تدخل عسكري بري من قوات التحالف الإسلامي من دول الخليج ومصر وباكستان من الجنوب، وبتدخل مشابه من الشمال من القوات التركية؛ حيث قالت صحيفة "أكشام" التركية: إن قيادة القوات الخاصة التركية تستعد لبدء عملية عسكرية في مدينة جرابلس السورية غربي الفرات، وسيتم دعمها من خلال عمليات جوية أيضًا، وذلك لتمشيط المنطقة التي يوجد بها تنظيم الدولة، وأضافت الصحيفة أن قيادة القوات تدرب عددًا من عناصر القوات الخاصة لتنفيذ هذه العملية، وستنتهي مهمة الجنود بمجرد دفع عناصر التنظيم لمسافة 40-50 كم تقريبًا، وإذا أبدى عناصر التنظيم أيّ مقاومة فسوف يُقدَّم الدعم الجوي، وستُنفَّذ

العمليات في ثماني نقاط إن اضطر الأمر أيضًا، ولن يُسمَح لعناصر الـPYD، الحلول مكان التنظيم[25]، فالقضاء على تنظيم الدولة لا يسمح للقوات التركية بالتدخل في الصراع فقط، بل سيسمح لها أيضًا بالتمركز داخل سوريا؛ لتحقيق أهدافها المتمثلة في إنشاء منطقة آمنة، وإعادة اللاجئين الذين تدفقوا إلى تركيا، ومنع التنظيمات الكردية من إنشاء شريط حدوديّ عازلٍ بينها وبين سوريا بهدف تحجيم النفوذ التركي في الإقليم، ولكون منطقة الشام منطقة مفتوحة بصورة عامة، فإن ذلك سيجعل الحرب أيضًا مفتوحة بين مختلف أطراف الصراع، وسيؤدي إلى اشتباكات مباشرة بين الأطراف السُّنية الشيعية، وهذا لن يَصبّ في مصلحة الدولة الإيرانية، التي لن تتحمل أن تواجه تحالفًا سُنيًّا يمتلك أحدث الأسلحة الغربية، وعددًا هائلًا من القوات البرية، كما أن استدعاء الصراع السُّني الشيعي سيحفز مشاعر المسلمين حول العالم للتطوع في تلك الحرب الدينية، التي من المتوقع أن تكون نتائجها كارثية على الجميع.

خاتمة

تشير المتغيرات الثلاثة السابق ذكرها إلى أن المستقبل لا يبدو جيدًا لجميع دول الإقليم، وأنه لا مناص من محاولة تهدئة الصراعات، ولاسيّما في ظل انسحاب القوى الكبرى من الإقليم، وأن ارتفاع وتيرة المواجهة والاقتراب من الحرب المذهبية على طول الإقليم لن يصب في مصلحة أحد، لذلك فإن خيارات إيران في المشرق العربي ليست جيدة بحال من الأحوال، وذلك بالنظر إلى القدرات العسكرية والاقتصادية والثقافية والدينية للدولة الإيرانية، التي لا يمكن أن تضاهي قدرات نظيراتها من الدول السنية، كما أن إيران استطاعت أن تحقّق تقدّمًا في نفوذها الإقليمي عندما سمحت لها الدول السنية بذلك، وظلت تغضّ النظر عن دعمها للميليشيات في كل من اليمن ولبنان والعراق لسنوات، حتى تضخم التهديد الإيراني، وبدأت تصرح القيادات الإيرانية علانية عن سيطرتها على العواصم العربية، وأن النفوذ الإيراني أصبح في تقدّم، وهنا تحركت الدول السُّنية، التي ربما لم تُرِدْ أن تُوسَم الحرب في المنطقة بصبغة مذهبية، لتداعيات ذلك على كل العالم الإسلامي، إلا أن خيارات الدول السُّنية باتت محدودة، بل ومنحصرة في مواجهة النفوذ الإيراني على المستويات كافة: السياسية والاقتصادية والعسكرية.

ومن هنا فإن أي تصعيد عسكري ضد إيران سيكون له تداعيات جسيمة على الداخل الإيراني في ظل أزمتها الاقتصادية، وانخفاض مدخولات اقتصادها الذي يعتمد بصورة أساسية على النفط، في حين أن إيران لا تستطيع أن تخوض حربًا شاملة في مناطق التماس مع حدودها الطويلة كافة: مع منطقة الخليج وتركيا والعراق على حد سواء، كما أن القدرات الإيرانية في مجال الدفاع الجوي وفي مجال الطيران تعدّ متواضعة للغاية في مقابل القدرات العسكرية لدول التحالف السُّني، بالرغم من تقدمها في مجالي السلاح البحري والقاذفات الصاروخية، إلا أن إيران لا تستطيع أن تتحمل حربًا شاملة على كل تلك الجبهات في ظل الظروف المشار إليها.

لذلك فإن الخيار الأمثل لإيران ولدول الإقليم كافة هو العودة إلى حدود التعاون المشترك، وهنا تبرز أهمية الدولة التركية التي تتعامل مع إيران ببراغماتية كبيرة، وأنشأت معها مجلس تعاون تركي-إيراني[26]، حيث تمثل تركيا فيما يبدو الشرطي الطيب في العلاقة مع إيران، بينما تقمصت السعودية في عهد الملك سلمان دور الشرطي الشرس، وذلك من أجل دفع إيران إلى التراجع عن إستراتيجيتها الهدّامة، انطلاقًا من أيديولوجيتها المذهبية، التي تهدف إلى تصدير ثورة أخفقت إخفاقًا كبيرًا في الالتزام بأدبياتها وأخلاقيتها في مختلف مناطق الصراع في المشرق العربي.

الهوامش و المراجع

1. Excerpts From the Iran-Contra Report: A Secret Foreign Policy, *The New York Times*, January 19, 1994, on: http://www.nytimes.com/books/97/06/29/reviews/iran-transcript.html
2. وزير إيراني سابق: نسيطر على 4 عواصم عربية، العربية.نت، 2أبريل 2015م، على: http://goo.gl/RRt7YP
3. Is the Iranian Regime Rational?, *Foreign* Policy, BY Michael Singh February 23, 2012, on: http://foreignpolicy.com/2012/02/23/is-the-iranian-regime-rational/
4. ما هي دلالات فوز الإصلاحيين؟ مركز دراسات إيراني مهمّ يجيب، عربي21، محمد مجيد الأحوازي، 03 مارس 2016، على: http://goo.gl/wFBeQh
5. Iran profile - timeline, BBC, 29 February 2016, on: http://www.bbc.com/news/world-middle-east-14542438
6. من هو آية الله أحمد جنتي رئيس مجلس خبراء القيادة في إيران؟، بي بي سي، 24مايو2016، على: http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2016/05/160524_iran_jannati_profile
7. محمد أحمد المقداد، تأثير المتغيرات الداخلية والخارجية الإيرانية على توجهات إيران الإقليمية: العلاقات الإيرانية العربية: دراسة حالة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، المجلد 40، العدد2، ص450.
8. The myth of hardline-pragmatic division in Iran, Lina Khatib, Middle East Eye, 28 January 2016, on: http://www.middleeasteye.net/columns/myth-hardline-pragmatic-division-iran-1751861509
9. The revolution is over, The Economist, Nov 2014, on: http://www.economist.com/news/special-report/21628597-after-decades-messianic-fervour-iran-becoming-more-mature-and-modern-country
10. روسيا توداي، خسائر إيرانية في سوريا، 10 مايو 2016، على: https://goo.gl/ASuXL3
11. إيران.. مظاهرة رفض التدخل بسوريا تعكس تصاعد الغضب، سكاي نيوز عربية، 13 مارس 2016، على: http://goo.gl/Xu2PQc
12. حوار مع علي نوري زاده، رئيس مركز الدراسات الإيرانية العربية، أجرته سكاي نيوز عربية، نشر في 10 مايو 2016، على: http://goo.gl/vDzyxA

13. تقرير لتليغراف البريطانية نشره ديفيد بلير، عربي21، 11 مايو 2016، على:
https://goo.gl/FSU6hf
14. قاعدة عسكرية تركية في قطر بالإضافة إلى القاعدة الأمريكية، سي إن إن، 28 أبريل 2016، على:
http://arabic.cnn.com/world/2016/04/28/qatar-turkey-military-agreement
15. البيان الختامي لقمة التعاون الإسلامي في إسطنبول، الجزيرة.نت، 17 أبريل 2016، على:
http://goo.gl/3ifJY8
16. تصنيف خليجي عربي لـ"حزب الله" كجماعة إرهابية، الجزيرة.نت، 3 مارس 2016، على:
http://goo.gl/VGPwda
17. الخليج يستبدل عمالة عربية وتركية بالعمالة اللبنانية، عربي21، 16 مارس 2016، على:
http://goo.gl/w2hdzD
18. هل تتحمل روسيا تكاليف تدخلها في سوريا؟ الجزيرة.نت، 16 أكتوبر 2015، على:
http://goo.gl/qPx43Z
19. قاعدة "حميميم" السورية تتحول محجًّا للعسكريين والسياسيين التابعين للنظام، ريان محمد، العربي الجديد، 10 مارس 2016، على:
http://goo.gl/oYdxwp
20. داعش يتبنى تفجيرات بروكسل، روسيا اليوم، 22 مارس 2016، على:
https://goo.gl/5PNPGI
21. لا حج في مكة للإيرانيين هذا العام، الحرة، 29 مايو 2016، على:
http://www.alhurra.com/content/saudi-iran-bilgram/307812.html
22. Iran Spends Billions to Prop Up Assad, Bloomberg, By Eli Lake, JUNE 9, 2015, on: http://www.bloomberg.com/view/articles/2015-06-09/iran-spends-billions-to-prop-up-assad
23. سي إن إن، 13 أكتوبر 2015، على:
http://arabic.cnn.com/middleeast/2015/10/13/russia-syria-cost-war-sebastian
24. سي إن إن، 22 فبراير 2016، على:
http://arabic.cnn.com/world/2016/02/22/russian-comments-assad
25. أورينت نيوز، 9 مايو 2016، على:
http://goo.gl/ku3b4A
26. روحاني يتوجه إلى أنقرة ليترأس مع أردوغان فعاليات مجلس التعاون التركي الإيراني، ترك برس، 15 أبريل 2016، على:
http://www.turkpress.co/node/20734